من بين خوف النافذة

مشاهدات وتأمُّلات

للقس اسطفان فرحات اللبناني

٢

وكان الصباح ايضاً ذات يوم، لما عدت فجلست الى نافذتي المذكورة. اتبين ما عكني ان اتبينه من الذين يتسنى لي ان اراهم حينئذٍ. كما رأيت غيرهم من قبل، بحيث تتولد لي من هذه المرئيات، لذة التفكير في جميع ادوار هذه الحياة الدنيا، فأسرّي بذلك عني بعض ما بي في وحدتي، من سؤم وضجر.

فبينا انا مجهد حافظتي، في استرجاع ذكرى الساعات الخاليات، ومستسلم الى تيار النفس الطامحة الى التعرّف، الى طباع كل من ممثلي ادوار رواية هذه الحياة، فوق مسرح هذا الوجود المجيب. واذ بصوتٍ مستعطرٍ، قد خرق اذني فوصل الى صميم فؤادي، حتى كاد يبكيني عليه رحمة وشفقة. وهو رجل، عليه اهدام بالية، يخال للرائي ان اعوامه قد نيفت على الاربعين، قد تملكه الجوع، ونال منه الظمأ، يحتقب كيساً وعى فيه فضلات المحسنين اليه. وبيده عصاً يستدل بها على سواء السبيل. وذلك لان الطبيعة، أبت الّا ان تعامله بالجور والظلم. فقد افقدته نور بصره، فامسى عمياً عنها، محروماً لذة مرأى جمالها الرائع، ولكنها قد عوضته من ذلك نور البصيرة، فكان يستعطي اخوته البشر، كسرة خبز، او بعض دريهمات، يبتاع بها، ما يسد به الرمق، ويزود به عنه الطوى، فاستوقفته تحت نافذتي، وقمت الى درجي وجئته بما استطعت ان اتخلى عنه، وهو بعض دريهمات، يمتان بها على شراء ما يمسك به النفس. فما ان نفحته بها، حتى اطلق لسانه بالشكر لي والثناء عليَّ بعبارات كانت تخال اليَّ انها صادرة من صميم فؤاده، الذي كوته الفاقة بنارها المحرقة، وسطت عليه ذئاب الحاجة القصوى، حتى اوشكت ان تمزقه بانيابها الحادة،

وما زال يدعو الى الله ليغزر بركاته عليَّ، حتى وصل من تسياره، الى باب احد الاغنياء، الذي قد انعمت عليه الطبيعة بمالٍ وفير، وما زالت تزيده، حتى بطر في سعة عيشه وغرق في بحر ترفه وملذاته، فتعامى عن معرفة الاخاء، واستهتر في ازدراء البؤساء. فامسى، والحالة هذه، هدفاً لالسنة الناقدين، فلا يكاد يراه من الجانب الواحد احد ممن تعرفوا اليه، وخبروا طويته؛ ويرى من الجانب الآخر ذلك الفقير البائس يستندي اكفَّ ذوي المروءة والمعروف، بكلام يفتت الاكباد حزناً، حتى يتمنى لو ان الطبيعة كانت عدلت بين الاثنين بتوزيع الحظوظ، فوهبت ذلك الفقير نور البصر، فوق ما وهبته من نور البصيرة. وهذا الغني نور البصيرة، فوق ما وهبته من نور البصر. اذن لما كنا نرى ان ذلك يكبو في شظف العيش، وهذا يمرح في بحبوحته. بل كان لذاك استطاعة ان يحصّل عيشه، ويأكل لقمته مريئاً، لما اوتيه من ذكاء وفطنة وطيب سريرة، دون ان يزعج الخواطر، بصراخه واستعطائه على هذا الشكل، الذي يلج القلب، ويكوي الفؤاد. ولكان لهذا اعني الغني — ان يتزكى من ماله، ولا يولي من يقرع بابه لعوز او فاقة، قرع العصا. بل كان كلما سأله سائل اعطاه، وكلما مرّ به بائس آساه. لانه يستطيع ان يتبين حالة البائس بمرأى العين، ويشعر باضطراره الى بعض ما يمسك به نفسه.

واذن فقد كان وصول هذا الفقير الى باب الغني المذكور، مدعاةً لان يُريني ما تأباه المروءة والسخاء، وينكره الاحسان، وينفر منه العطف، وتستهجنه الشفقة، وتمجه الانسانية. فما كاد يقرع عليه بابه، ويطلب منه احساناً، حتى ظهر عليه بملابسه الفاخرة، متشائماً بصباحه، بادياً علامة الاشمئزاز من مرأى اطماره البالية. ثم احتدم عليه غضباً، ورفع عقيرته عليه بالتقريع والشتم. واذن فكان ان ذهب هذا الفقير متعثراً في اذيال الخيبة، كما ذهب نظراؤه عن باب ذلك الغني، وقد افعم الحزن قلبه حتى طفح به فتدفقت فضلاته من عينيه، وهو يسأل الله ان يليّن قلوب اخوته البشر الموسرين، على ذوي الفاقة، بكلمات تصحبها تأوهات تقطر حزناً، وزفرات ملؤهنَّ الاسى والشجو. قائلاً: اللهم انت مؤئل البائس، ومرجع اليائس، اليك ارفع

تضرعاتي ، لكي تعدل في توزيع الحظوظ . لانك مصدر العدل ، ومنبع الرحمة والاحسان . وما زال ينطق بمثل هذه العبارات فتخرق الفضاء الى الخالق الاسمى ، حتى توارى عني ، وراء احدى البنايات الضخمة . الا ان صدى صراخه وتضرعاته ، لم يزل يرن في اذني ، ومثاله مصور نصب عيني ، فلم يسعني ، والحالة هذه ، الّا ان ذرفت دمعة لم اعلم ما هي ، ولا ماذا اسميها ، ادمعة حنان على الفقير ، ام دمعة خوف من القدير ؟ ام هي تلك الدمعة التي يستذرفها المرء عند ما يرى مثل هذه المأساة المحزنة ، بحيث لا يتمالك ان يحجبها عندئذٍ ضمن مآقيه . وكيفما كان من امرها ، فاني اعلم انها دمعة ، يرشحها القلب المكلوم ، وان لم يتعمد ذلك ، بل تكاد تكون في الانسان طبعاً ، فهي كالعصير الذي تنضحه الجفنة عند ما تقلّم . واذن فهي في الجفنة دمعة القلم ، وفي الانسان دمعة الكلم . فقلت : كفاني ما رأيت في هذا الصباح ، مما اثار شجوني ، وضرم في فؤادي نار الاسى . فاخذت يراعتي ، وخلوت بنفسي ، وكتبت لك ، ايها القارئ الكريم ، هذه الكلمة التي تقرأها الآن ، وهي تكاد تكون صورة مصغرة لهموم الفقراء البائسين ؛ اللهم من دون العمى ؛ مع الكثيرين من الاغنياء في هذه البلاد ، الذين لم يفهموا للرحمة معنى ، ولا للشفقة اسماً .

قلت الكثيرين ، ولم اقل الكل استثناء لبعضهم ، الذين ما زالوا يرؤفون بالبائس ، ويعطفون عليه ؛ يؤلمهم بكاؤه ، ويلعجهم صراخه . فلهؤلاء الاقلية ، الف شكر واحترام . ويا ليت جميع البشر يعلمون انهم كلهم اخوة ، اذاً لما كنا نسمع مثل هذا الصراخ الذي يستذرف العبرات ، ويدمي الافئدة . وانهم بالحقيقة لكذلك ، لو كانوا يدرون . لانهم جبلوا من طينة واحدة ، وهم من خلق واحد ، وهو القدير ، وقد دعاهم المخلص اخوة : كلكم اخوة . ولكن قد اظلمت قلوب الكثيرين ، وخلت من كل مسكة من الحنان على الفقير . وصمّت آذانهم عن سماع صراخه المرّ .

واذن فهؤلاء هم الذين يصدق فيهم معنى قول المخلص : لهم اعين ، ولا ينظرون ؛ وقلوب ، ولا يفهمون ؛ وآذان ، ولا يسمعون . ومن تحقق فيهم معنى هذا الكلام المقدس ، كانوا ، ولا شك ، مرذولين من الله ومن الناس .